

يا هبر استقلالنا الكرتوني !
فدرت بين الناس كالمجنون

اخرجني كما ترى عن ديني !
اسألم عنه فما دلوني

إلا على قموار والحاره !

ولم يذهب الشاعر ولا الآخرون الى الحاره حقيقة ، وانما انعد بعد توقيع المعاهدة مؤتمراً وطنياً كبير حضره عدد من الوطنيين واتخذت فيه قرارات هامة اخطرها إلغاء المعاهدة الاردنية البريطانية واجراء انتخابات حرة . وتظاهر الطلبة في جميع المدن الرئيسية ، وواجههم البوليس بالرصاص ، كما القيت عدة قنابل على بيوت عدد من المسؤولين ، واعتدى شاب على احد اعضاء المجلس التشريعي لموافقة الاخير على المعاهدة .

لقد اخذ الاستعمار يشعر باشتداد المقاومة فعمد الى اجراءات سريعة وحاسمة : السجن والنفي والرشوة ، مع تلبية بعض المطالب الجزئية . وانتهت المقاومة دون ان تحصل على اية مكاسب .

كان هذا الفشل اسباب عديدة ، اهمها : ضيق افق الطبقة الموجهة للكفاح لاقتصارها على بعض المطالب التي لا تستطيع ان تتبناها جماهير الفلاحين ، وميلها السريع للمساومة نظراً لعدم وجود مصالح كبيرة يهددها الاحتلال بوجوده ، وعدم نضوج الوضع للقيام بكفاح شعبي عام بإمكانه ان يضع حداً لتسيطرة الاستعمارية .

ان الباستيل لم يهاجم بعنف كاف ، والطبقة الثائرة لم يكن لها ظروف البورجوازية الفرنسية ولا إقدامها ، واما الاعداء فقد كانوا اكثر صلابة ووعياً من النبلاء الفرنسيين الحمقى .

واحدث فشل الطبقة الوسطى اثرأ عميقاً بين صفوف الفلاحين والمنقذين الذين عقدوا الآمال العريضة على هذه الحركة . على ان هذه الحركة كانت ضرورية وحتمية ، فقد كان من المستحيل ان تتحرك الجماهير الواسعة وعلى رأسها مثل هذه الفئة التي ينتهي كفاحها عند بعض المطالب الآتية . لقد كان الفشل مجرد تطهير واعداد للقوى التي ستسلم القيادة الشعبية وتوجهها نحو اهداف اكثر وضوحاً وابعاد مدى .

لقد كان الشاعر يعيش في داخل هذه الاحداث ، ويشارك فيها مشاركة فعالة ، كان يعيشها يوماً ، يوماً ، ويعكسها في شعره . فابان ثورة العشائر (١٩٢٣) والشاعر ما يزال في الرابعة والعشرين من عمره ، التي القبض عليه بناء على ارادة سامية ، بتهمة التحريض على الثورة ، وسبق الى سجن جده وبقي هنالك ثمانية شهور ، ثم افرج عنه بعفو خاص . وكان السجن مقسماً الى اقبية مظلمة حشر في احدها ، وحيداً ، وربطت قدمها الى فلقة خشبية . يصف هذه الحادثة في مذكراته فيقول :

« ان معاملي هذه عدا انها كانت مخالفة للقانون والعدل والانصاف ، فانها كانت من قبيل البطر لا اقل ولا اكثر ، واظن ان الله لم يخلقني لأكون ملهاة للمتلبي من رجال حكومة شرق الاردن بحيث يسوغ لهم نفيي واعتقالي لمجرد رغبتهم في ذلك دون ان يستطيعوا الحصول على اي دليل مادي ضدي ، واظن ان في بقاء الانسان نيفاً وثمانية شهور قيد السجن المؤبد بكل ما في الاذى من معنى ، هو امر مؤثر معنوياً بحيث لا ينفع معه عفو يصدر . »

وفي عام ١٩٢٥ عين مصطفى حاكماً ادارياً في بلدة الشوبك وادي موسى ، ثم كتبت يده عن العمل بسبب اتهامه بتحريض الاهالي على الثورة ضد الحكومة ، واعتبر انه كان سبباً في الاضطرابات التي حدثت هنالك . فنقل بعدها الى عمان وعين مدرساً براتب ضئيل جداً . ويقول الشاعر في مذكراته ، ان ذلك كان من تدبير المعتمد البريطاني « لكي يحملي على الخضوع ويخرس لساني وقلبي

الى الابد . » ثم اعتقل الشاعر بعد شهور قليلة من تعيينه بتهمة - كما يقول - « مؤلفة من ثلاثة اثنائي ، وهي : ١ - رفع راية الباشفية . ٢ - السكر في حانة عامة . ٣ - نظم قصيدة تضمنت إطالة اللسان على سمو الامير ورئيس النظار وحكومته على ملأ من الناس . »

وبعد خروجه من السجن عين مديراً لمدرسة الحصن الابتدائية ، وبعد مضي تسعة شهور على تعيينه تسلم الكتاب التالي من نظارة المعارف : « لقد عزلتم اعتباراً من ١٥ نيسان ١٩٢٨ من وظيفتكم لاشتغالكم بالسياسة وعليه صار تبليغكم ذلك »

ويشرح الشاعر سبب العزل في مذكراته فيقول : « وكان ذلك بسبب حركات معارضة المعاهدة ، فقد اعتبرني الحكومة أساً هذه الحركات واتهمني بتحريض اهالي عجلون على الاضراب احتجاجاً على المعاهدة ، وتحريض التلاميذ على المظاهرات ، وقيادتي للطلاب بعد ان اطلق المتصرف النار عليهم في اربد ، وقد اوفدت الحكومة لجنة للتحقيق ، واكن اللجنة اعتقدت باجرامي قبل ان تصل اربد وقبل ان تعرف حقيقة ما حدث .. »

وتضي مذكرات مصطفى :

« ٢٧ نيسان . الجمعة : كان اليوم موعداً للتظاهر في اربد . »

« ٢٨ نيسان . السبت : اشتغلت هذا النهار بالاستعداد لاصدار جريدة

(الانباء) وكتبت مواد اغلب الصحيفة الاولى وقضيت النهار بالمطبعة . »

« ٢٩ نيسان . الاحد : جاءني سعيد اليوسف ضابط الشرطة واعلمني بأنه لا يسوغ لي اخراج عدد الجريدة من المطبعة ، وفي النهار مثلت حكومة شرق الاردن فصلها المضحك معي في اصدار قانون المطبوعات .. »

وفي ١٦ شباط ١٩٣١ اعتقل مصطفى من قبل متصرف اربد بسبب مقال نشرته جريدة الكرمل الفلسطينية وعزي اليه ، وحكم عليه بالنفي لمدة ستة شهور في بلدة العقبة .

في هذه الفترة وصلت الاردن الى وضع مستقر نسبياً ، فالبو الذين اضطرت حياتهم بعد منع الغزو ، اوجدوا توازناً جديداً ، وذلك بأن تحول جزء كبير منهم الى الزراعة كما فتح الجيش ابوابه لهم فدخل منهم فيه اعداد كبيرة . واطمان الاقطاع كذلك الى امتيازاته بل انه وجد ان بقاء السلطة البريطانية في البلد يدعم نفوذه ويرعى مصالحه . وقويت كذلك شوكة السلطة ، فزادت عدد افراد الجيش زيادة كبيرة ، وجمعت الجيش الحربي من البدو الذين اصبحوا يعتمدون اعتماداً رئيسياً في معيشتهم على الرواتب التي يتقاضونها كما اقيمت التجارة في الداخل على اناس ان يحتكر استيراد المواد الضرورية عدد ضئيل من التجار يقومون هم في الوقت ذاته بدور الموزعين على صغار التجار في القرى . كما قاومت السلطة كل محاولة لانشاء صناعة وطنية .

لقد ادى هذا الى نشوء مجتمع بيروقراطي في الداخل ، تسيطر فيه على الوضع الاقتصادي فئة صغيرة من كبار المستوردين ، ويسيطر فيه على جهاز الحكم زمرة ضئيلة . وانصرف المجتمع بجمعه الى تكديس الثروة والتسابق على المناصب ، والبحث عن القرش باية وسيلة لمواجهة مطالب الحياة التي اخذت تبدو شديدة الصعوبة ، نظراً لارتفاع الاسعار وزيادة مستوى متطلبات وحاجيات الفرد . وهكذا اخذ المجتمع ينتعج شيئاً فشيئاً بطابع التجار والفئة الدنيا من الطبقة الوسطى .

في الوقت الذي كان يعتبر هذا التطور بالنسبة للطبقة الوسطى الناشئة ، حلا معقولاً لمشكلاتها ، كان بالنسبة لمصطفى مأساة حقيقية . فقد كان نموذجاً

ثورياً فريداً في ذلك العهد ، اذ كان مثلاً لجنح ثوري لم يولد بعد ، ولقد تأخر ميلاده بسبب الظروف التي اوجدها الاستعمار فمنع قيام صناعة وطنية . كان على هذا الجناح الثوري ان يتسلم القيادة من الطبقة الوسطى ويقود الثورة الى نهايتها المنطقية ، واكن حظ مصطفى التمس انه جاء مبكراً فحمل هذه الامانة وحده ، وسار يتحسس طريقه .

كان يشعر في صفاء واحساس صادق بأن المهمة التاريخية ، مهمة القضاء على النفوذ البريطاني ، لا يمكن ان تتم على ايدي المثقفين والافندية . بل انه كان يشعر بالقرص والوحدة والضجر ، عندما يكون بينهم . لقد رأى ان المجتمع الجديد الذي خلقوه ، قد اطرح كل علاقة انسانية صادقة ، وتجمدت فيه جميع المشاعر الانسانية ، وكل دفة الاحاسيس الصادقة تحت جليد العلاقات التجارية الجديدة . ان علاقات البيع والشراء قد حلت محل المحبة الصادقة والكرم الذي عرف به الشعب الاردني ، والصراع على تكديس الثروة قد حول علاقات الصداقة والود الى علاقات ذئبية اذراسية جديدة .

ان (الافندية) اصبحوا موضع هزئه واحتقاره ، هؤلاء الذين اخذوا يميزون انفسهم على عامة الناس باللباس الاوروبي وبالراتب الثابت آخر الشهر :

لا تنخدع بالبنطلون ولا تنق بجبال زيه
ماكل زخرقة رواء وكل خطب عنجهيه
كم فارس هو في الحقيقة عند راتبه مطيه
ومدجج قاد السرية وهو قواد السرية

* * *

ترك التقى خبير بعلم الله من نسك التقييه (١)
إن خلف العنجهية والغرور التي تتصف بها هذه الفئة فراغاً مقيماً ، وكذباً ونفاقاً . إن قضيتهم ليست قضية الشعب العامل ، بل ان كل ما يتصفون به من ذكاء والمعيه متجه الى انتهاز الفرص والثوب للمناصب الكبرى :

لما رأيت الكذب سر تفوق الفئة السرية !
ورأيت كيف الصدق يذهب من يقول به ضحيه !
ونظرت احلام الوطائف سادة بين البريه !!
ايقنت ان الامعية في ازدراء الامعية !
وحللت عقلي من عقال الهاجسين بحسن نيه
وسبرت اغوار السراة وقستمهم بالسرسريه (٢)
فوجدت رهط الهبر قد بز الامائل اريحيه .

إن اهداف هذه الفئة تنتهي عند منصب معين تناله او لقب حقير ، وهم في ذلك يخالفون قواعد الشرف و « الحجا » :

فالناس إنسانان من همه
وآخر تأبى عليه الحجا
ما قيمة • اللقب منصوبة
كم مطلق العنان ألقابه
يستنسب الري بصفح القفا
وراسف بالقييد ما ينثني
ان يرتوي ذلا وان يلعبا
الا بأن يشقى وأن يتعبا
والظهر بالخزي قد احدودبا ؟
ما حقت سؤلا ولا مطلباً
يا بس ما اختار وما استنسا
يدأب حتى يبلغ المأربا

(١) التقيية : مذهب معترف به عند بعض الفرق الاسلامية وهو أن يتظاهر الانسان بما يوافق الحكام اتقاء لشرهم ، ويقال انه مأخوذ من الآية الكريمة : « إلا ان تتقوا منهم تقاه »

(٢) السرسريه - كلمة تركية ، تستعمل في اللهجة العامية بمعنى اللص او المتعطل عن العمل .

ما قيمة الاوسمة بالنسبة للانسان الشريف ؟ .

وما تسميه يا مولاي اوسمة علقبها خبار الهبر نيشانا

ان المدينة التي خلقت هذه العلاقات والاخلاق كلها زين وباطل :

دعي المدينة لا يخذلك باطلها فزيغها بين من غير منظار
وهو يمتلي ثورة على حياة الوظيفة وما فيها من روتين قاتل وتظاهر سخيف

ابله : فيحسب قانون الجزاء وحسب احكام الخزينه

ما جشهي من افانين اللباقة والمرونة

بتوقري شأن القضاة ومشيتي بخطى رزينه

والخوض في فك الرهون ومهجتي معكم رهينه

لقد كان هذا العالم يلاذ بالسأم والضيق فترأده رغبة في الهرب ، من هذه البلاد « حيث الخداع يعانق النكران والغدرا » ، الى مكان لم تلوثه هذه العلاقات الخالية من الانسانيه ، علاقات التنافس وما يتولد عنها من الحقد والغدر وخيانة الصديق وهي « شر ما امتحن القلب السليم به » :

موطني الاردن لكني به « كلما داويت جرحاً سال جرح »

وبنفسي رحلة عن ارضه عله يشفى من الارهاق نرح

كل ما ارجو لو ان مني عاثر الجد اذ يرجو نصح

ان ارى لي بيت شعر حوله من شلايا قومك السرحان سرح (١)

في فلاة ليس للعلاج بها حية تسعى وثعبان يفح

ولكن سوء طالعه جعل هذه الحياة مغرورة عليه ، فلا بد ان يرضى بها

في سبيل « لقمة الخبز » :

يا لقمة الخبز التي اشقت بحاجتها الأنام

وأذن مطلبها العزيز وفت في عضد الهام

تف على بشرية الفت لمنلك بالزمام

هانت فلم تحفظ غير صفائر الدنيا ذمام

أأذت موضوع الحياة ونستحق الاحترام ؟!

إن شوقه الى عالم تخلص نهائياً من هذه العلاقات التجارية شوق لا يجاري :

يا اخبت رم (٢) وكيف رم وكيف حال بني عطيه

هل ما تزال مضاهم شماً وديرتهم عذيه

سقياً المهديك والحياة كما تؤملها رضيه

وتلاع وادي التيم ضاحكة وتربته غنيه

وسفوح شيحان الاغن بكل يانعة سخييه (٣)

ايام لم يك للفرجة في ربوعك اسقييه

واللعج ما انتصبت له في كل موماة بنيه

ووجد مصطفى بعض ما يصوب اليه بين مضارب النور ، فهنا قد وجد

مجمعاً يرفض العلاقات الجديدة ، والتقسيم الطبقي الجديد :

الكل زط مساواة عميقة تنفي الفوارق بين الجار والجار

فلا يرى الهبر بأساً في منادمتي وشرب كأس من الكونياك قعواربي (٤)

هنا مصطفى وجد الحياة البسيطة ، حيث يعيش الناس باحتراف بعض

الاعمال البسيطة كالحداة ، وبيع الخلى الرخيصة وصناعة الغرابيل ، ولا

(١) شلايا - قطعان الغنم . السرحان - قبائل بدوية على الحدود الاردنية

السوريه .

(٢) اسم جبل في الجنوب تقطن حوله قبائل بني عطيه .

(٣) شيحان - جبل يقع شهالي بلدة الكرك .

(٤) قعوار - بائع خمور

يملك فيهم الانسان سوى خيمته المصنوعة من الخيش (الخربوش) ، وحماره . وكان المصدر الرئيسي لعيشهم هو التمسك بالغناء والرقص . لقد سحرت مصطفى هذه الحياة البوهيمية المتحررة من كل قيد اجتماعي . يصفهم في احد رسائله فيقول : « هذا ما جعلني لا ارد مضارب النور كجماعة منقب ، الا لاصدر عنها كشاعر متشعب ، في موسيقاهم روعة باكية ، ولأعين نساءهم ومضة ساحره ، وفي تنني قدود راقصاتهم ما يشيع في نفس المشاهد احاسيس متباينة ومشاعر تتأرجح بين الاعجاب والاشفاق واللذة والالم والبهجة والأسى » .

ولهذا فقد اصبح النور من المواضيع الرئيسية في شعره ، فلا تكاد تجد قصيدة (سوى ثلاث او اربع قصائد) لا يرد فيها ذكر النور . بل انه يروى ان عدداً كبيراً من الاغاني التي يغنيها النور من نظم مصطفى ، منها هذه الاغنية المعروفة :

يا يمه تويبي ضيق
وش لك نجب المبسم
حصاد خلي المنجل
شفا لك تشرين للال

الا انه لم يرد في ديوانه ما يؤكد هذه الرواية .

يصف الاستاذ محمود المطلق ، في البحث الذي قدم به ديوان عرار « ليالي النور » بقوله : « ... فهناك بين الخرابيش كان يجتمع السامرون من يعشقون غناء النور وفنهم وموسيقاهم... »

« وتقوم (سعاد) للرقص ويعب القوم كؤوس الرحيق عباً ، وتشخص عيونهم الى قوام النورية الحسناء ، وهو يتلوى تحت القبة الساكنة الهادئة ، وعلى الضوء الخافت ، او في ضياء القمر الهادي ، وفي ذلك السكون المطلق ينساب صوت سعاد ثاقباً هذا الفضاء العريض ويداعب صوتها المرتعش اساعهم التي اثقلها الشراب فيحسونه آتياً من اطراف الافق البعيد ..
« ويرتفع صوتها المتهدج هذا للحن العراي الخزين ..

اسمر سمارك حلو
والعين عين الطير
وش بان مني خطايا الله
عجل ، وتعاثرون الغير
ويبي ويبي .. يا ويل قلبي

« .. ويصبح « الخبر » بصوته الاجش المدوي : على حياة ابو وصفي ، على حياة فلان .. والي يجب النبي يقول يستاهل ..

« وتتناثر النقود على جسم الغانيه ، ويعلق القوم الاوراق المالية المختلفة على جسمها وتصبح هي بدورها « خلف الله عليك يا .. » وتعود الى الرقص والغناء .. » (١)

وكان حبه لبسطاء الناس جازفاً قوياً : لفقراء الفلاحين ، والصعاييك والسرسيه . كانت جنوده تمتد الى ابعد الجاهير واشدها بؤساً . في شعره نجد الريف كانه متجسداً ، الفتيات الجميلات ، سواء أكن من شركسيات وادي السير ، او من صبايا بني عطيه البدويات ، او من مآدبا او عجميات .. كما نجد قرى الاردن وديانته وجباله تستأثر بالقسم الاكبر من شعره .

نقد رأى ان الجاهير البسيطة التي لا تملك سوى قيودها قد استطاعت ان تنتصر على جميع ما اوجده مجتمع الطبقة الوسطى من غرور

(١) مقدمة الديوان صفحة ١٩ - ٢١

وسخف وتجارية ، وان الروابط التي تربطها فيما بينهما تزال روابط انسانية اصيلة صادقة . وهي مع هذا دائبة على اثراء حضارتنا بفنّها الشعبي على مختلف الوانه . في خلال تاريخها الطويل اكتشفت فنون الرقص التي تعبر بها عن علاقاتها الاجتماعية وعن تمردها على هذه العلاقات ، كرقصة الدبكة والسحجة . وحبل مودع ، وانواع الاغاني الشعبية التي تحمل حبا الكبير للحياة واحتجاجها على مظالمها كالموال والهجين والمهاهه ، ودلعونه ، وغزير ، واغاني الدراسين والحصادين الخ .. كما عبرت عن فلسفتها في الحياة بعدد ضخم من الامثال تتصف بالعمق والواقعية والصياغة اللفظية الجميلة .. وهي بالرغم من هذا كله تضي مع الحياة بوداعة وطيبة ، لا تكلف نفسها بالتظاهر السخيف الاجوف .

هذا الفهم الانساني ، البسيط والعميق معاً يتحدث مصطفى الى الشعب ، وهو يخاطبه بعطف وحنو ويجب يكاد يرتفع الى مرتبة الصوفية . كان يدرك ان سذاجتهم هي مظهر لأجمل ما في الانسان ، وهم يمنحون هذا العالم من الجمال والسعادة مالا يستطيعه رضوان في جنته :

يقول عبود (١) جنات النعم على ابوابها حارس فدعوه رضوانا
من ما راحوب (٢) لم يشرب وليس له ربع بجمعاد (٣) او حي بشيخانا
ولا تقياً في عجلون (٤) وارفه ولا حدا بهضاب السلط (٥) قطعانا
ولا أصاخ الى اطيئارنا سحراً بالفور تملأه شدواً والحاناً
ولا بوادي الشتا تامته (٦) جؤذرة ولا رعى سهول الحصن (٧) غزلانا
ولا تأردنه يوماً بمحتمل ولا لتقديسه الاردن إمكانا
إن كان يا شيخ هذا شأن جنتكم فابعد بها إنها ليست بمرمانا
وقل معي بلسان غير ذي عوج لا كنت ياجنة الفردوس مأوانا
وعندما كان الشاعر مأوراً للاجراء في اربد كان يرفض تنفيذ قرارات
رئاسة الاجراء بحسب المدنيين الفقراء ، وبرر موقفه هذا بقصيدة عنوانها
« اخواتي الصعاليك » يقول فيها :

قولوا لعبود على القول يشفيني
وانهم لا اعز الله طفمتمهم
ثم يقول مخاطباً المرابين :

وخشية العزل من ذا المنصب الدون
أم رغبة بتقاضي راتب ضربوا
وقفاً عليكم فعنها الله يغنيني
إن الصعاليك اخواني وإن لهم
فالعزل والنفي حجاباً بالقيام به
يا شر من ضيق هذي البلاد بهم
ان الصعاليك مثلي مفلسون وهم
وقصيدته (العبودية الكبرى) هي خير ما انتج - في رأبي - وفيها نجد تعبيراً عما يتصف به مصطفى من انسانية صادقة ، وحب للشعب الفقير . ومناسبة القصيدة ، ان الشاعر كان في عام ١٩٣٣ رئيساً للكتاب في اربد ، فجهاد صديقه الفجري « الخبر » زائراً في الدائرة ، ولكن خطأ ودخل غرفة المدعي العام ، فغضب وطرده وأوصى الجندي الذي يقف ببابه ان يلقي به

(١) الشيخ عبود النجار كان قاضياً شرعياً وصديقاً للشاعر .

(٢) عين ماء تقع الى الشرق من مدينة اربد

(٣) منطقة الكرك .

(٤) اسم بلدة اردنية وكذلك (٥) و (٧)

(٦) وادي يقع بالقرب من بلدة وادي السير .

خارج الدائرة ، فذهب « الهبر » وشكا امره لمصطفى ، فكتب هذه القصيدة يعاتب فيها المدعي العام .

تبدأ القصيدة بلوم المدعي العام لمعاملته المتحيزة للزائرين في الوقت الذي يقضي « العدل » (ان تعامل زائريك على السوية) . ثم يروي ملاقاه « الهبر » « من شطط بدار العادلية » وتعليقه على ذلك بقوله - اي الهبر - :

ويقول إن زيارة الحكام - لا كانت - ليه
ثم ينصح المدعي العام إن يكفر « عن تلك الخطية »

وادخله حالا للمقام وفز بطلمته البهيه
ودع المراسم والرسوم لمن عقولهم « شويه »
فالهبر مثلي ثم مثلك اردني التابعيه

ثم ينتقل الى المقارنة بين فقر الهبر المادي وفقر الفئة المثقفة « للأباء وللحميه » :

يا هبر بي فقر كفقرك للأباء وللحميه
او ما تراي قد شبعنا على حساب الاكثريه
واكلت بسكوتاً وهذا الشعب لا يجد القليه
ولبست اذ قومي عراة غير ما نسجت يديه

وينتقل الى مخاطبة الشيخ عبود معتذراً عن شره الخمر معزياً ، ذلك « ان الذي تسبى موطنه تحل له السبيه ! » ولكن اقباله على الخمر لا يعني « ان الهدى وقف على فئة الشيوخ الازهرية »

ثم يذكر ما يمتليء به قلبه من حب وشوق :

ان القدود المأدبيه (١) والعيون المعجميه (٢)
اشواقها ستظل في قلبي وإن اردت حيه
ولسوف تبقى للصبابه في ثرى رمسي بقيه
وهو اي سوف يظل يهزأ بالقبور وبالمنيه

ويصف بعد هذا حال الاردن بعد ان دخلها « العليج » وكيف انها فقدت الاشرار والجهال والخصب . ثم ينتقل الى رسم صورة لأمسية في الصحراء ، اذ تقبل الابل فتستقبلها النساء مناديات بصوت رخيم « حي هلا ، حي هلا » ، وتقبل قطعان الغنم فيسوقها العبيد الى مراحها وهم يدفعونها صائحين « هـ.. هـ.. س » . ثم ينهي القصيدة بقوله ان « الكذب سر تفوق الفئة السريه » وان « رهط الهبر قد بز الامائل اريحيه » ويحذر الهبر الا ينخدع بالبنطلون وإن الذين يرتدون إن الاله مطايا لرواتبهم .

وفي وصفه للريف نلمس تعلقه بالبلد التي عاش فيها ، وندرك مدى ارتباطه العميق بالارض واعتزازه بآثاره بارد نيتة :

يا بنت وادي الشتا هشت خمائله
عارض هل من وسمي مبدار
وثغرة الزعري أفر مبسمها
عن لون خدك اذ تغزوه انظاري (٣)
وسهل اريد قد جاشت غواربه
بكل اخاذ من عشب ونوار
ان الشالبيخ في حصن الصريخ لقد
حالت الى غسل يا بنت فاشتاري
دعي المدينة لا يخدعك باطلها
فزيها بين من غير منظار
ما بعد خبير وادينا وخبزته
وبض عكوبنا ميرلمتار (٤)
وليس ثمة من فرق بشرعتنا
ما بين راعي سحاحير وسحار

خدك يا بنت من دحنون ديرتنا سبحانه باري الاردن من باري (٥)

* * *

ولكن الحياة اخذت تقسو على مصطفى ولم تدعه يحقق مناه :

لا بد للحرمين يوم يقول به شرقى وراتبكم والعزل اسواء (٦)
ها رفدكم فخذوا .. بعداً لنا نائلكم فانه وصمة تالله شنعاء
فعاد الى الوظائف الحكومية واخذ يرتقي بسرعة ، كما اخذت علاقته بالقصر تتوطد فاصبح في عام ١٩٣٨ (اميناً ثانياً) للامير ، ثم اذ به يتوجه الى مصر ويقابل مصطفى النحاس ويبلغه رسالة شفوويه تتعلق بامور ملكية خاصه - كما تقول مذكراته - كما يقابل اشخاصاً آخرين بارزين في المجال السياسي ، ويلقي محاضرة في الجامعة المصريه عن « وحدة الوجود » . ثم نقل الى وظيفة كبير مفتشين بوزارة المعارف : وفي عام ١٩٤٢ عين حاكماً ادارياً لمنطقة البلقاء ، واستمر في هذه الوظيفة عدة اشهر انتهت بعزله وسجنه في ٨ تشرين الاول ١٩٤٢ .

في هذه الفترة ابتعد مصطفى عن الشارع ، وعن الحياة التي كانت منبع شعره وفقد الاتصال الحي المباشر بالاحداث ، فلذا نرى شعره في هذه الفترة يعبر عن غربة وضياوع ومرارة ، واصبحت موضوعات شعره الرئيسية تنصف بالخوف من الموت والحنين الى الماضي ، كما اخذ يشك في قيمة الكفاح والمبادي بعد أن رأى الامور تجري على غير رغبته :

كفرت بكل عاطفة لها بمبادئي نسبه
ورحت اظن ان الجري في حلب اهوى سبه
وعشت لغير تغلاب العلاء والمجد لا أبه
ابايح من يساومني على الترفيه بالنيكبه .

وفي قصيدته « تذكارات » يقف الشاعر على اطلال بني عطيه ، وقد انصرف فتيانهم الى الجيش ، واندرت تقاليدهم القديمة : الكرم والعزة والإباء ، كما ان جلالهم قد فقدت خصبها وتراثها فاصبحت جرداء عارية ، خالية من بيوت الشعر التي تحتضنها :

كان الاله بعون قومك يا فتاة بني عطيه
المطعمين الناس والطاوين في السنة الرديه
إذرمهم هضبانه شم وديرتهم عذيه
وسفوح شيجان الاغن بكل مكرمة غنيه
ما للفرجة او لصاحبهم بها من اسقيه (٧)
فوقفت فيها اليوم ابذل طاقتي من شاعربه
واريق في عرصاتها من ادعني هذي البقيه

وفي قصيدة « هدى الاربعين » يقول :

أهوى ولات اليوم حين تصابي وجوى وقد عمز المشيب شبابي
والاربعون بعون بعضها وقضيضها جثمت مزجرة قبالة بابي
يامي اشطان الخيال أرثها متح الوقائع من معين سرايبي
وأزاهر الشوق الملح احالها لفتح السموم تغضناً بأهابي
كما ان شعره في هذه الفترة قد اخذ يفقد الكثير من ميراثه القديمة ، وما كان يتميز به من قوة انفعال ، ومن قدرة على نقل الاجواء الشعبيه ، واصبح

(٥) دحنون - شقائق النعمان

(٦) الشرة - كلمه عاميه معناها الخذاء البالي .

(٧) صاحبهم : هو جون باجوت جلوب ، قائد الجيش العربي الاردني

انذاك .

(١) نسبة الى بلدة مادبا

(٢) نسبة الى قبيلة المعجارمه .

(٣) الزعري - موقع بقرب مدينة الساط

(٤) الخيزر والعكوب - نباتان .

صابعه كلاسيكياً تكثر فيه: الكلمات الغريبة والتشبيه والصور المستجدة من اشعر القديم .

وعندما غادر السجن ، بعد ان قضى فيه سنتين ، في نهاية عام ١٩٤٢ - عاد الى مزاوله المحاماة والى الاتصال من جديد بالحياة . ولكنه وجد أن كل شيء قد تغير ، فالنور الذي كاذب ليلهم متعة فنية خالصة بالنسبة اليه قد تحولوا الى مهنة بيع الاجساد ، وانصرفوا عن الحياة القديمة ، فيقول في قصيدته « جحش الظير » :

لا حبذا الكاس ومن انزعه ومن سقائه ومن شعشه
أين ليالي هوك الممتعه يا هبر ايام الصما والدعه
أيام لم يكن فيكم رائجاً سوق اجتلاء النهد والفرزه (١)
جحشك يا هبر كعهدي به مارال لكن بدوا البردعه

يا هبر أقصر أنها جورعه مقصورة عأحب والامعه (٢)

وكل من مد ذراعاً الى سنبها فنيفتقد اصبعه
وفي قصيدته « بقايا الحان واشجان » وهي آخر ما انتج الشاعر ، نلحس اساءه البالغ بتغير الاحوال ولبيانة الاصدقاء ، وضيقة هذه البلدة التي اصبحت سيطرة التجار والبريطانيين عليها مزلتله :

تقد تنكر لي اهلي وانكرني صحبي واقرب من ادنيت تقصاني
فها كني كيتامي المزلت لا احد يرثي خالي ولا انسان يرعاني
ولا يراني اهل انير يوايدي امدها لهم اهلا لاحسان
اقول هذا صديق دقاد فاذا بعد التجارب بي امنى بخوان

إن عزاءه الوحيد هو ان الفلاحين ، وبسطا الناس ما زالوا على حالهم ، يحملون في اعماقهم الطيبة والاخلاص ، ويتحملون « نعمة الدل » كما يتحملها هو يا بنت وادي الشتاصرت جنابده ورجعت جلهتاه الغر الحاني فلا عليك اذا اقريني ليناً وقلت بخيزتنا من قمح حوران اما السكاكر فلينعم بما كلفها « صبري » و « منكو » و « توفيق بن قطان (٣) وليجيبى « لدرج » و « الكوتا » وطعمتها في ظل دوح من الذاذات فينان (٤) اما انا والمنا كيد الذين هم قومي و صحبي وندماني و خلاني فحسبنا نعمة الدل التي نخرت عظامنا واعزت ريع ... ثم يقول :

قالوا تدمشق قولوا ما يزاا، على علاته اربدي اللون حوراني
اليد عني القاباً واوسمة قد ارحفت بضروب الخزي عنواني
رأبي لربي لن أطأطئه ولن اذلك يا نفسي لديان
شمس العدالة لم تشرق على نهر مؤلف من مخاريق وخرسان

(١) خصلمة الشعر التي تبدل على الحبين وهي كلمة دارجه

(٢) جورعه : هي اخبية التي يمنحها صاحب الارض للاقطات والفقراء ، عندما يتهي من حصاد اراضيه .

(٣) صبري ومنكو وتوفيق بن قطان من كبار التجار المتوردين في عمان .

(٤) لدرج - كان موظفاً في السفارة الانجليزية في عمان ثم ترك الوظيفة واشغل بالتجارة وانشأ مع بعض تجار عمان شركة طيران ما زالت قائمة حتى الآن ، اما « الكوتا » فهي كلمة اجنبية شاعت منذ الحرب الاخيرة في الاوساط التجارية ومعناها المخصصه الاردن من النقد الاجنبي او البضائع الاجنبية ، وكانت الكوتا سبباً في ثراء الكثيرين من التجار واغنياء الحرب الذين يعرض بهم الشاعر في هذه المقطوعة . (محمود المطلق)

فليثق الله بي شعب محبته كانت وما برحت ديني وديداني
وليتق الله بي شعب وفيت له حق الوفاء وبالنكران كافاني
على مذايح قولي سوف اسعده ضحيت عمري فلم يسعد واشقاني
قضى اساطين حزبي يا اخي ومضوا فاشحذ مدائك فاني اليوم وحداني
نحن الألى قد وفينا في مودتنا يوم الرفاق تنادوا يا لقمحطان
وعلقوهم على الاعواد ما علموا ان العزائم لا تنهى بعيدان

ويصف الاستاذ محمود المطلق هذه الفترة من حياة الشاعر في مقدمة الديوان فيقول : « وفي هذه الفترة التقيت بمصطفى كزميل له في المحاماة ، فقد كنت قد تركت التعليم ، بعد ان حصلت على اجازة المحاماة في عام ١٩٤٤ ، وكان مصطفى قد افتتح مكتباً للمحاماة في عمان في فندق متواضع للغاية يدعى « اوتيل السعادة » وبينما كنت في صيف ١٩٤٥ متعظلاً اتسكع في اسواق عمان وفي ايام محكمتها بلا عمل يذكر ، التقيت بمصطفى فعرض علي ان اشتغل معه في المحاماة فقبلت على الفور ، واصبحت في اليوم الثاني في مكتبنا الجديد المتواضع في اوتيل السعادة .

« كنت اظن مصطفى كثير الاعمال في المحاماة وأنه يربح من عمله أرباحاً طائلة واني بفضل ذلك سأتحلص من حياة البؤس والتشرد التي كنت احياها ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى عرفت ان ما نرجمه من عملنا لا يكفي لسداد مصروفاتنا اليومية الضرورية ، وكانت الاعمال تتناقص والايراد القليل ينخفض حتى عجزنا عن دفع اجرة المكتب ، وكان رحمه الله يأتي الى المكتب في الصباح ، واذ لا يكون لدينا عمل ما ، يأخذ في الشراب ويمضي في ذلك الى ما بعد الظهر ، ثم يذهب الى البيت فينام ويأتي في صباح اليوم التالي الى المكتب فيتكرر نفس الفصل ، وهكذا مضينا على هذا المنوال حوالي السبعة او الثمانية شهور .

« وصارت الحياة تبدو لي في امة بائسة كما كانت في السابق ففارقت (اوتيل السعادة) الى عجاون وارتحل مصطفى الى اربد ، واخذت المساة تدنو من نهايتها . في تلك الايام التي قضيتها مع مصطفى لم يكن يعني بنظم الشعر ولم ينشر أية قصيدة جديدة ، ولم يقيم بأي نشاط ادبي ، وكادت تبدو عليه علام الاخلال الجسدي والانهيار النفسي ويفغمره شعور جارف باليأس والمرارة وكره الحياة ، وكان المرض واليأس والشراب تعمل كلها على تهديمه وتقصير اجله .

« واخيراً هذه المرض والهزال فنوى عوده ولم يعد يقوى على الحركة والاضطراب فلزم الفراش ... وكان الاطباء ينصحونه بالانقطاع عن الشرب فلا يذعن لنصحهم ويصر على ان الشراب هو الذي يشفيه وليس الطب . » (١) وفي ٢٥ ايار ١٩٤٩ « مضى وهبي لطيته » ودفن في سفح تل اربد حيث اوصى :

يا اردنيات إن اوديت مفتر باً فاسجنها اربد بأبي اتين اكفاني
... وقلن للصحب واروا بعض اعظمه في تل اربد او في سفح شيحان
قولوا قضى ومضى وهبي لطيته تغمدت روحه رحمت رحان
عسى ونعل به يوماً مكحلة تمر تتلو عليه حزب قرآن

* * *

عندما غادر ابناء الفلاحين الفقراء وصغار التجار اكواخهم المبنية من (اللبش) والطين ، يحملون اسلهم ، متجهين الى المدارس التي اقامتها نظارة المعارف في عشر بنيات هذا القرن ، كان ينبعث في نفوسهم امل صغير : ان يجعلوا حياتهم خيراً بما هي عليه ... ومع بذرات المعرفة الاولى تفتحت في

(٥) مقدمة الديوان . صفحة ١٣

نفوسهم آمالاً رائعة : بأن يمتلكوا يوماً ما المصير ويمسكوا شؤون حياتهم وبلدهم بأيديهم .

كانت الرغبة كبيرة لها سعة الحياة كلها في حركتها نحو المستقبل ، فعانقت كل ما هو حي وشريف ، واندفعت للامام ساخرة بأسون والشجون والرصاص وكعاب البنادق وسياط الجنود البدو .

كان هذا هو المضمون الذي تناوله مصطفى وحولته الى شعر حي متفاعل يعود به للمعركة فيجري - متفاعلاً - مع اعمق تياراتها . ولكن المشكلة التي كانت تواجهه وما تزال تواجه الكثيرين هي ان المضمون الجديدي اكبر واشد حيوية من ان يسعه الشكل القديم والصياغة القديمة . فالشعر العربي اعهد طويل جداً قد تقوقع وفقد صلته بالحياة العامة ففقد التودج والصدق ، فقد القدرة على التعبير المباشر عن الاحداث ، واصبحت نقطة انطلاقه الفكرة او المعنى ، لا الواقع ؛ فغداً جامداً بليداً لا يزيد عن كونه افكاراً أصبت في قوالب ميتة . فاصبحت الحصور محشورة في الخواتم ، والاردادف بحجم حجر الطاحون ، والشمس تطلع فقط لتلقي تحية الصباح على المليفه ، وتخفي في المساء مكسوفة من نوره وبهائه . ولم تعد الصور تثير اي تعاطف حقيقي من جانب المتلقي .

لقد حاول الشاعر ان ينفض عنه غبار التركة القديمة المعطلة للحساسية والانطلاق فخرج بعدة حلول :

اولاً : الاستعانة بالعامية لنقل الانفعال والاجواء الشعبية . ولكن ذلك لم يكن يتأتى له ببسر ، فكان ينتج في ذلك عندما يكون انفعاله بالحدث قوياً ، وعندما يصبح الشعب هو الموضوع الذي يتناوله بالقصيدة . نجد ذلك في قصائده الكبرى : « يا جيرة البان » و « اهكذا حتى ولا مرحباً ! » و « توبة عن التوبة » ورائعته الشهيرة « العمودي الكبري » و « بقايا الحان و اشجان » الخ ..

ولكن عندما يصبح الموضوع رسمياً ، لا يثير انفعالا حقيقياً نرى مصطفى يعود للقوالب القديمة والصياغة التقليدية . ففي قصيدته (الحسن لا وطن له) يرد بها على الملك عبد الله الذي بعث اليه بقصيدة يلومه فيها ويداعبه على تعاقبه بفتاة شركسية (اعجمية) يقول فيها الملك :

ناديت من (برفين) غير سميعه فاصرخ وصح ما شئت يا برفين

* * *

هبلتلك امك كيف تمدح دمية برطانة ضحكت عليها الصين ؟
فيرد مصطفى :

(برفين) يا مولاي لاعترت بكم في حلبة النظر السديد عيون

رعبوبة ومن المحاسن حسبها أن الفؤاد بحسبها مفتون

لقد حاول مصطفى ان يستفيد من العامية قدر ما يستطيع ، فحاول مثلاً نظم عدد من الامثال في شعر فنظم المثلثين العاميين : « البراطيل خربت جرش » و « حاكمك لاسمك » بقوله :

إن البراطيل قدماً خربت جرشاً وانحاكم الفذ لكام لسانيه

كما حاول ان يستفيد من الاغاني الشعبية فنسج على منوالها قصيدة عنوانها (هب الهوا) وهي من اغاني الدراسين على البيادر اذ يغنون مقطوعات تبتدئ عادة بقولهم (هب الهوا) يقول فيها :

هب الهوا وشجائك ان نسيمه في ضفة الاردن ريح سوم

وأنا وانت اذل من وقد ومن غير باسطيل الهوان مقيم

والشعب عندهم اضيع من سائل قدر يمد ذراعه للثيم

* * *

زيتون برما رغم انفك داشر ما زال وهو كذاك منذ قديم (١)
هب الهوا وانا وانت يهنا قبض المعاش بيومه المعلوم
وحكومة السفهاء لم تعرف لها وجهاً لهذا الموطن المشؤوم
باعوا البلاد وحضرتي وجنايتكم لكن بلا ثمن الى حاييم
ثانياً : كما حاول في بعض الاحيان التخلص من الصياغة القديمة كما نجد في قصيدته (يا حلوة النظرة) :

يا حلوة النظرة

يا حلوة التقطيب

اليس معنى النظرة العابسه

ترمقي شررا

او ترمق المشيب

انه لا تثر يب

على الذي بالقامة المائسة

يستنفد العمرا

يستعذب التعذيب

يا حلوة التقطيب

ثالثاً : استعمال الصور بدلا من التقرير ، كما في قصيدة « متى » التي نظمها وهو في السجن ، وقد أقبل العيد :

انقد هل الهلال ابن اثنتين فمن رأى منكم طيفه !

قبيل تقدم السجنان يوصد كوة الغرفة

أجاء العيد واتبع الصغار واهبجوا قصفه

فهذا نافخ بوقاً ، وهذا ضارب دفه

إذن لعبوا ... إذن طربوا ...

إذن قفزوا ... إذن وثبوا ...

كما يشب الغزال الغر وهو يطارد الخشفه

وكم زحلوقة زلوا

هنا العينان تنهل

يقوم حياها طفل

ومنها حظه الالهفه *

ثم يقول :

واني واثق من أنها في هذه الساعه

ومن خلف الزجاج بأعين وكفاء دماغه

الى الشعري العبور ترقق العينين في هفه

عسى أن يلتقي طرفي هناك بطرفها صدفه

على أننا لا نستطيع القول إن مصطفى قد انتصر على جميع العقبات ، هذا إذا علمنا أن ثقافته كانت مقصورة على الأدب العربي القديم تقريباً ، وأن المهمة هي مهمة جيل بل أجيال .

غالب هلسا

(١) برما قرية في اللواء الشمالي اشتهرت بازيتون ، والمقصود هنا هو المثل الشعبي (زيتون برما داشر وتعيشوا يا همل)

صدر عن دار المكشوف

للجـاـحـظ

كتاب مفاخرة الجوارى والغلمان

ينشره للمرة الاولى المستشرق شارل بلا